الاوضاع الداخلية لدولة الخلافة العباسية

حركة الزنج : 255 - 270 هـ/ 869 – 883 م

طبيعة الحركة وأهدافها

مما لا شك فيه أن حركة الزنج التي قامت في عام 255 هـ وأنهكت دولة

فعت الحالخلافة العباسية، قبل أن تقضي عليها، تسترعي الانتباه، وتدعو الباحث إلى معالجتها من خلال البحث عن طبيعتها وأهدافها ، ودوافع الاستجابة لها .

وللوقوف على طبيعة الحركة ، لا بد لنا من سبر أغوار العناصر والفئات ايدتها وشاركت فيها والواقع أن عماد الحركة ، تمثل في بادىء الأمر، ببعض العرب المغامرين من المهالبة والهمدانيين وغيرهم. أما الفئات التي شاركت فيها، فهي متنوعة ، الزنج ، أهل القرى ، العرب الضعفاء ، عشائر عربية ثائرة على السلطة.

أما فيما يتعلق بالشخصية التي قادت هذا الجمع ، فهو علي بن محمد الفارسي الأصل . وهو شخصية محيّرة فعلاً، حيث يلاقي الباحث صعوبات جمة في معرفة نسبه ، وذلك بفعل تقلباته السريعة، تبعاً للظروف التي كان يمر فيها. واتصف بأنه رجل طموح وموهوب جداً وبعيد عن الزهد لأنه شارك في السلب والنهب.

ويبدو أن حياته كانت غير طبيعية، فقد بدأها كشاعر في بلاط الخليفة بسامراء ، ثم حاول القيام بحركة ضد النظام في البحرين للوصول إلى الحكم، إلا أنه أخفق في تحقيق مبتغاه . فسلك نهجاً جديداً، وظهر كقائد ديني ومتنبىء ونبي ، فادعى نسباً علويا محاولاً أن يستثمر ما للشيعة من عطف وتأييد بين الناس، وقد أحله أتباعه من أنفسهم محل النبي حتى جبي له الخراج .

ويبدو أن جماعة كثيرة العدد في البحرين قد تنكرت له، مما دفعه إلى مغادرتها إلى البادية ليستقطب الأعراب. وادّعى فيها النسب الشيعي على أنه يحيى بن عمر ابو الحسين ، فالتف حوله بعض الأعراب ، استغلهم بإعادة السيطرة على البحرين ، إلا أنه هزم وفرّ إلى البصرة .

ووقف أثناء إقامته القصيرة فيها على أوضاعها الداخلية السياسية والاجتماعية ، حيث كان المجتمع البصري منقسماً على نفسه. فحاول أن يستغل هذه الخلافات لصالحه إلا أنه فشل. وفي الوقت نفسه، رأى في حياة العبيد فيها الذين يعملون في المستنقعات المجاورة ، فرصة لتحقيق طموحاته . لكنه طرد منها، فذهب إلى بغداد .

استنبط في بغداد نسباً علوياً جديداً فانتسب إلى أحمد بن عيسى بن زيد . ثم حاول الوثوب إلى السلطة مستغلاً الأوضاع المضطربة في حاضرة الخلافة. ولكنه لم يتمكن من ذلك بفعل إحكام الأتراك قبضتهم على الوضع ، فعاد إلى البصرة في عام (255 هـ/869 م) ليتزعم حركة ثورية، مدعياً أن الله أرسله لتحرير العبيد وإنقاذهم مما كانوا يعانونه من بؤس، كما ادعى العلم بالغيب وانتحل النبوة .

والواقع أن فكرة المهدي المنتظر قد رافقت علي بن محمد في جميع مراحل حياته السياسية ، فاستغلها بذكاء، وهو بادعائه المهدية ، كان يضرب على وتر حساس في نفوذ جماعة العلويين الذين برح بهم الشقاء، فكانوا يأملون ظهور مهدي منقذ يزيل عنهم الغمة ، ويفرج عن أيامهم

كربتها . وركز كثيراً على عراقة أصله وكتبها على نقوده، وسمى نفسه «المهدي علي بن محمد» المنقذ.

وجهر علي بن محمد في إحدى مراحل حياته بمذهب الخوارج الذي تلائم مبادئه ميول أصحابه الشورية ، فحارب من أجل العدالة الاجتماعية والمساواة وكتب شعاراته على الرايات باللونين الأخضر والأحمر وهما لون العلويين ولون الخوارج.

لقد تعارضت أفكار علي بن محمد عن الخلافة مع مفهوم الشيعة لها ، التي تؤكد على الوراثة ، وتبني رأي الخوارج القائم على الشورى، مما نفر منه الأعراب البسطاء ، وعرب البصرة والأهواز وواسط والمناطق المحيطة بها، كما رفض قرمط أن يرتبط معه بعوامل دينية ، أما شدته وقسوته تجاه أعدائه ، فقد جعلته خارجياً متطرفاً ، يضاف إلى ذلك، فقد عامل أسرى الحرب معاملة الرقيق، ووعد أتباعه بأنه سيملكهم المنازل والعبيد، وهذا يعني تحويل حياة الزنج من أرقاء إلى ملاكين للعبيد .

والواضح أن هذا التناقض في عقيدة الحركة يفرغها من أي صيغة عقائدية ، ويجعلها حركة مسلحة ضد النظام، ليس إلا، كما يجعل من قائدها رجلاً مغامرا طموحاً إلى السلطة . ومما لا شك فيه أن طموحات علي بن محمد السياسية المتمثلة بالاستيلاء على السلطة، تعتبر الدافع الحقيقي لحركته، مما حدّ من اندفاعها لدرجة كبيرة، وحصرها في فئة من الزنج، وأبعد عنها تدريجياً الفئات الأخرى التي شاركت فيها"

دوافع الاستجابة لها

حركت هذه الجماعات المتعددة التي التفت حول علي بن محمد دوافع مختلفة ، منها:

- تحدي الحكومة المركزية للخروج من دائرة البؤس والشقاء .
- الحصول على المغانم عن طريق السلب والنهب .
- التملص من العمل الشاق أو من ضنك العيش .

أما دوافع الاستجابة الواسعة للحركة من قبل العبيد ، فتكمن في ثلاثة : سياسية و اقتصادية واجتماعية .

فمن حيث الدوافع السياسية ، لقد سبق حركة الزنج ورافقها نفوذ مارسه الأتراك على الخلافة. وقد غلب عليهم الارتزاق، وانحصر نشاطهم في تقدير الوسائل التي تمكنهم من ضرب خصومهم ومنافسيهم، والاستئثار بالسلطة مما أدى إلى كثرة المؤامرات السياسية والانقلابات العسكرية ، فانحدرت الخلافة إلى الحضيض ، وغدا الخلفاء ضعفاء مسلوبي الإرادة .

نتيجة تردي الأوضاع السياسية، اشتد ساعد المعارضة، الشيعية خاصة، فتعاظم النفوذ العلوي، وتغلغل بين الناس، وكان الاتجاه الحركي المعارض يجيش منذ مطلع القرن الثالث الهجري، فتكاثرت الحركات المناهضة للحكم المركزي، وتعددت الحركات الانفصالية التي جاءت دليلاً على أن الانحلال أخذ يدب في مركزية الخلافة . فكان الجو السياسي العام ملائماً للرجال المغامرين، كي يفوزوا بالسلطان، في الوقت الذي كانت فيه المعركة على أشدها بين الحكومة المركزية والمعارضة العلوية، مع بروز حكام في بعض الولايات لم يعترفوا حتى اسمياً بسلطة

الخلافة، وراحوا يعبرون عن أماني هذه الفئات المعارضة، إلى جانب صراع خفي بين الإقطاعية والعبيد، وجد متنفساً له في دعوة علي بن محمد الطامح إلى السلطة .

ومن حيث الدوافع الاقتصادية ، تبرز أمامنا ظاهرتان؛ ظاهرة الأوضاع المالية المتدهورة، وظاهرة التكوين الطبقي للمجتمع العباسي.

ففيما يتعلق بالظاهرة الأولى، فإن الأمور الملفتة للنظر في النصف الأول من القرن الثالث الهجري أن مالية الدولة كانت في تأخر مستمر بفعل إسراف الخلفاء والقادة الأتراك على أنفسهم. ومن مظاهر التعثر والانحطاط في مالية الدولة أن نظام الالتزام أو الضمان أضحى على ما يبدو النظام السائد . ومما زاد الأوضاع المالية تفاقماً، فصل بيت مال المسلمين عن خزانة الخليفة الخاصة، ومع اشتداد نفوذ الأتراك، فقد وضعوا أيديهم على بيت المال ، في حين انصرف الخلفاء إلى تنمية موارد خزانتهم الخاصة.

أما فيما يتعلق بالظاهرة الثانية ، فقد كان المجتمع العباسي يتألف في القرن الثالث الهجري من ثلاث طبقات اجتماعية هي:

1- الطبقة الإقطاعية، وتتألف من الأسرة المالكة، والقادة الأتراك والوزراء الأثرياء وأصحاب المناصب، ويملك أفرادها الأراضي، ويعتمدون على الزراعة كمصدر لثرواتهم. وقد تطورت أوضاعهم الاقتصادية تطوراً كبيراً باتجاه التوسع والتكثيف ، مما تطلب زيادة عدد العبيد الذين يعملون في هذا الحقل، خاصة في جنوبي العراق .
2- طبقة التجار .
3- الطبقة العامة العاملة .

وعرف أواسط القرن الثالث الهجري ازدياداً في دور الإقطاع وتُعدّ ضياع البصرة، حيث كان الزنج يعملون في الأراضي الموات التي كان عليهم استصلاحها وتجفيفها، مما تطلب زيادة الاعتماد على العبيد المجلوبين من شرقي إفريقية ، باعتبارهم أيدي عاملة رخيصة وذات بنية قوية تصلح للعمل في تلك السباخ أو الأراضي الملحية . وقد ترافق ذلك مع ازدياد دور التجارة. فقام التجار بشراء العبيد بأثمان رخيصة ، وباعوهم لملاك الأراضي في البصرة الذين حشروهم في تلك المنطقة.

واتسعت الهوة، مع مرور الزمن، بين هؤلاء وبين الطبقة الإقطاعية . وبلغ التناقض الاجتماعي مداه ، مما كان دافعاً للاستجابة لنداء الثورة الذي أطلقه علي بن محمد.

ومن حيث الدوافع الاجتماعية ، فقد عاشت تلك الفئات من العبيد ظروفاً معيشية شاقة وسيئة ، فكان عليهم العمل في تجفيف المستنقعات وإزالة السباخ عن الأراضي، ثم نقل الملح بواسطة الدواب إلى حيث يُعرض ويباع ؛ لقاء وجبة طعام تتألف من الدقيق و السويق والتمر ، ما كانت لتشبع، كما حُشروا في مخيمات لا تتوافر فيها الشروط الصحية العامة ، فتعرضوا للأمراض الفتاكة، كما تعرضوا لضغط عوامل نفسية شديدة الوطأة بفعل أنهم كانوا عزاباً أو متزوجين يعيشون بعيداً عن أسرهم.

وقد دفعت هذه الأوضاع الاجتماعية المتردية، هؤلاء العبيد، إلى الاستجابة النداء علي بن محمد الذي وعدهم بقيادتهم إلى الحرية ، وأن يهبهم الأملاك، وأن يبقى مخلصاً لهم حتى النهاية ، مركزاً على بؤسهم وسوء حياتهم، ومنّاهم بمستقبل رائع، ومنازل لإيوائهم .

الاصطدام بالسلطة - نهاية الحركة

وما زال الزّنج يلتفون حول علي بن محمد حتى كان يوم الفطر، فخطب فيهم، وصلى بهم، وأعاد إلى أذهانهم ما كانوا يلقونه من ظلم وعنت، ومنّاهم الأماني الطيبة، واتخذ من مدينة المختارة، التي بناها قاعدة انطلاق .

وقد برهن على أنه قائد مقتدر، إذ تميزت حملاته بكفاءة استطلاعية ، فتوفرت له دائماً المعلومات عن تحركات جيوش الخلافة . واعطته السياسة القتالية التي اتبعها، والقائمة على نصب الكمائن، التفوق على قوات الخليفة . فدخل البصرة عام (257 هـ/ 871 م)، وقتل سكانها وأحرقها .

كانت الخلافة آنذاك منهمكة في حرب يعقوب بن الليث الصفّار مما أعطى علي بن محمد فرصة التمادي والتوسع والتدمير، فسيطر خلال عشرة أعوام (255 -265 هـ/ 869 – 879 م) على رقعة واسعة تمتد بين الأهواز وواسط، وباتت بغداد مهددة .

عندئذ عهد الخليفة المعتمد إلى أخيه أبي أحمد الموفق طلحة، بمحاربة الزنج . فتولى هذا القائد قيادة العمليات العسكرية بنفسه. واستعمل كل ما لديه من إمكانيات سياسية واقتصادية وعسكرية ليكفل النجاح، فحاصر هم اقتصادياً ليضعف قدراتهم ، فأحرق غلالهم ومؤنهم، وقطع التموين عنهم الذي كان يقدمه الأعراب لهم. فعضهم الجوع، وخارت قواهم. فاستسلمت أعداد كبيرة منهم. ومن حيث الصدامات العسكرية ، فقد تمكن الموفق من إجلائهم عن الأهواز، وفتح مدينتهم المختارة، ثم توالت هزائمهم وسقوط مدنهم الأخرى حتى تم النصر النهائي عليهم في عام (٢٧٠هـ /٨٨٣م). وقُتل علي بن محمد إبان المعارك واستسلم من بقي من أتباعه. وبإخماد الثورة، أسدل الستار على هذه الحركة التي أقضت مضاجع الخلافة العباسية، وكلفتها الكثير من الجهد والأموال والأرواح، والتي دامت أكثر من أربعة عشر عاماً .

تقييم حركة الزنـج

لقد انطلقت حركة الزنج من واقع الألم والاضطهاد الاجتماعي والاقتصادي بين مستنقعات البصرة وسهولها. وكانت بدايتها ناجحة انسجمت فيها أهدافها مع أفعالها لكن النزعة الفوضوية التي طبعتها وهي في قمة مواجهتها أدت إلى تقلص أبعادها الاجتماعية، وقد زاد من تلك النزعة، افتقارها إلى برنامج ثوري يصوغ تطلعات وأهداف القائمين بها، ويوضح العلاقة بين القيادة والأتباع . كما يلاحظ أن رجالها استهدفوا الانتقام لا الإصلاح، والانقلاب الاجتماعي لا التقويم ؛ وأن قائدها لم يستطع أن يحرر ذاته من مسألة فكرة الزعامة القرشية، بالإضافة إلى أن أطرها الثورية كانت محلية ومحدودة ولم تكن لديها تطلعات شاملة، وندرك من هنا عدم نجاح علي بن محمد في اكتساب قطاعات كبيرة من المجتمع العراقي، كالفلاحين وكبار الملاك والتجار والحرفيين، وحتى القرامطة ، فأصبح العبيد بمفردهم ضعفاء رغم عددهم الكبير .

ومن جهة ثانية، فإن سرعة الأحداث، وتصميم العباسيين على القضاء عليها، لم يعطيا قائدها مهلة لتنظيم صفوف قواته، وتمكنه من بناء مجتمع مستقر ذي أنظمة خاصة ، لذلك ، كان من الطبيعي أن تفقد هذه الحركة طابعها الإنساني والثوري مما دفعها إلى نهايتها المحتومة، لكن قاعدتها الثورية التي تشتتت استطاعت أن تكون إحدى الدعائم الأساسية التي دركة القرمطية إلى الظهور فيما بعد .